



مجلة الدراسات الإيرانية
Journal for Iranian Studies

مجلة الدراسات الإيرانية

دراسات وأبحاث علمية متخصصة

مجلة علمية ربع سنوية محكمة تصدر باللغتين العربية والإنجليزية

السنة الثانية - العدد الخامس - ديسمبر 2017

تصدر عن



مركز الخليج العربي
لِلدراستات الإيرانية
AGCIS

www.arabiangcis.org

العلاقات الإيرانية-الطاجيكية

إشكاليات البيئة الداخلية والخارجية

د. محمد شاکر

باحث في العلاقات الدولية وشؤون آسيا الوسطى

تنطلق سياسة إيران تجاه آسيا الوسطى من أكثر من منظور، فإيران جزء من هذا الإقليم الاستراتيجي المهم في وسط آسيا، وتلتقي مصالح إيران وتتقاطع مع القوى الإقليمية والدولية المؤثرة في تفاعلاته، كما أنه يُعدّ سوقاً اقتصادياً متخماً بالمصالح، بما يحويه من ثروات هائلة وموارد متنوعة، فضلاً عن أنه بيئة مواتية ومنسجمة مع تاريخ وهوية إيران، ومن ثمّ هو عمق استراتيجي يتيح لإيران بدائل متنوعة في مواجهة التحديات، بيد أن المنطلقات الفكرية التي تأسست عليها الجمهورية الإيرانية، والتوجّه الأيديولوجي للنظام الشيوعي، وسياسات نظام الولي الفقيه تجاه دول الجوار، قد أثرت على نمط العلاقات مع دول آسيا الوسطى، حرمت إيران من علاقات طيبة مع بعض دول آسيا الوسطى.



شكّلت الفترة التي أعقبت انهيار الاتحاد السوفييتي بيئةً مواتيةً للتمدد الإيراني في دول آسيا الوسطى، فترجع النفوذ السوفييتي عقب الثورة الإيرانية 1979 دفع إيران إلى محاولة التأثير ومدّ النفوذ في تلك المنطقة الحيوية، محاولةً بذلك فتح آفاق جديدة للتعاون. غير أن تلك المساعي الإيرانية كانت غالباً ما تواجه الفشل، لأنها كانت تنطلق من دوافع أيديولوجية خاصة بالنظام الإيراني، ومن ثمّ كانت تثير توجّس حكومات تلك الدول، فحكومات دول آسيا الوسطى غلب عليها رفض سياسات الهيمنة التي تحاول أن تفرضها إيران على دولهم، كما كانت تتوجس من دعم إيران لبعض الأحزاب والجماعات المحظورة من أجل التغلغل في مجتمعات هذ الدول. وكانت طاجيكستان من بين الدول التي حاولت إيران أن تنفذ إليها وتمتلك قدرة على التأثير بداخلها، لكن بعدما حققت بعض النجاحات على الجوانب الثقافية والدينية وامتلاك تأثير بداخلها سرعان ما تراجع ذلك وتدهورت العلاقة وصولاً إلى مرحلة القطيعة.

وتستهدف هذه الدراسة مناقشة حقيقة الدور الإيراني في دول منطقة آسيا الوسطى، وما يرتبط به من أطماع سياسية واقتصادية تستهدف الهيمنة على منطقة آسيا الوسطى، وفي القلب منها جمهورية طاجيكستان الإسلامية السنيّة. وتحاول الدراسة إلقاء الضوء على تطوّرات العلاقات بين إيران وطاجيكستان من خلال تناول محدّدات تلك العلاقة وأهدافها، وعوامل الاتفاق وأسباب الخلاف بينهما، وكيف أثرت القوى الإقليمية والدولية في هذه العلاقة.

أولاً: موقع آسيا الوسطى في السياسة الخارجية الإيرانية

بعد تفكك الاتحاد السوفييتي، سعت إيران إلى مدّ جسور العلاقات السياسية والاقتصادية والتجارية والثقافية مع دول الجوار في آسيا الوسطى، ومنها بالطبع دولة طاجيكستان، وذلك استغلالاً للفرصة التاريخية التي أعقبت انهيار الاتحاد السوفييتي مطلع تسعينيات القرن الماضي، وذلك بهدف الخروج من عزلتها السياسية بعد أكثر من عشرين عاماً من ثورتها، والاستفادة من هذه التحولات الجيوسياسية في إعادة التموضع على المستوى الإقليمي، بحيث تصبح دولة ذات تأثير ونفوذ كبيرين في منطقة الشرق الأوسط ككل.¹

حرص صنّاع القرار الإيراني على إقناع جمهوريات آسيا الوسطى بأن الصداقة مع إيران أجدر من الصدام، وقد انتهجت السياسة والدبلوماسية وسيلة لبناء وتطوير العلاقات مع تلك الدول من أجل تبديد مخاوفها، فضلاً عن الاهتمام بالجوانب التنموية وتقديم المساعدات²،

إذ رأت إيران بحكم موقعها وتاريخها أنها القوة الأقرب وصاحبة الحقّ في لعب دور كبير وقياديّ في منطقة آسيا الوسطى³. وفي المقابل كانت دول تلك المنطقة تحاول استجداء القوى الإقليمية والدولية من أجل فك ارتباطها بالاتحاد السوفييتي، وقد وجدت هذه الدول إقليمياً في إيران ضالتها⁴.

لكن المحركات العقائدية للنظام الإيراني، التي من ضمنها تصدير الثورة والانتصار للجماعات الشيعية في دول الجوار، واختراق المجتمعات والتأثير على سياساتها، أثارت مخاوف تلك الدول وجعلتها تتوجّس من الانفتاح الكامل على إيران، بل حشدت بعض هذه الدول جهودها لأجل التصدي لأي سياسات إيرانية غير مشروعة⁵.

وارتباطاً بما سبق، فشلت الأيديولوجية الإيرانية أمام هذه الجمهوريات الإسلامية في المنطقة بوصفها أيديولوجية الخلاص لهذه الجمهوريات من أزماتها، أو المحرك الذي من خلاله يمكن أن تبني أنظمتها السياسية والاقتصادية. ومع ذلك حاولت إيران بناء جسور من الثقة مع هذه الدول للحيلولة دون أن تكون هذه الجمهوريات مصدر تهديد، فضلاً عن المساهمة في السيطرة على الصراعات العرقية أو الأيديولوجية أو القومية بداخلها مخافة أن تطال الداخل الإيراني، سواء في ما يتعلق بجانبها العرقي أو ارتداداتها الأمنية والاقتصادية بسبب انتشار حالة من عدم الاستقرار أو احتمال تدفق مزيد من اللاجئين⁶. كانت الرعاية الدولية لعملية التحوّل في منطقة آسيا الوسطى عقب انهيار الاتحاد السوفييتي تحدياً إضافياً أمام قدرة إيران على الترويج لنموذجها، فضلاً عن هيمنة المذهب السنّي على مكونات بعض هذه الدول، لكن لم يمنع ذلك من تأثير العامل الإيراني بحكم الجغرافيا والتاريخ والهوية المتقاطعة، فعلى سبيل المثال كسب المذهب الشيعي في طاجيكستان أرضية كإحدى نتائج التأثير الإيراني، لكنها ظلت أرضية محدودة باستثناء مناطق ختلان وكولاب، لكن إجمالاً كانت طاجيكستان الدولة الوحيدة في آسيا الوسطى التي لعبت فيها القوة الناعمة الإيرانية دوراً بارزاً، حتى إنّ بعض تلك الدول نظرت إلى إيران على أنها نموذج يُحتذى⁷.

ويُعدّ الموقف الإيراني من الصراعات في آسيا الوسطى، لا سيّما الصراعات الحدودية، ضمن تحديات التأثير الإيراني في تلك المنطقة، فإيران كانت طرفاً رئيسياً في الصراع بين كازاخستان وأرمينيا حول منطقة غرباغ المتنازع عليها منذ سنوات، إذ وقفت في هذا الصراع إلى جانب دولة وأرمينيا ممّا أضرّ بعلاقاتها مع كازاخستان. وقبل ذلك في التسعينيات وقفت أيضاً إلى جانب أرمينيا ضدّ أذربيجان في صراعها على إقليم كاراباخ،

ومنعت عبور اللاجئين الأذريين لها، كما وقفت إيران إلى جانب بعض الجماعات المعارضة واستضافتها على أراضيها كما حدث مع حزب النهضة الطايجيكي. ولا شك أن هذه المواقف الإيرانية قد خلقت فجوة مع بعض الدول الرئيسية في هذه المنطقة.

وبقدر ما تمثله منطقة آسيا الوسطى من فرص لإيران، فإنها تمثل مصدرًا للتهديدات، إذ يتخوف الروس من الدور الإيراني في تلك المنطقة الحيوية، ومن ثم يسعون باستمرار إلى عزل تأثير النموذج الإيراني عن تلك المنطقة، كما أن إسرائيل تبحث عن موطئ قدم فيها لتكون بالقرب من إيران من أجل احتواء نفوذها ومواجهة مشروعها النووي، في حين أن الولايات المتحدة تسعى لقطع الطريق على مد إيران لنفوذها الاقتصادي والسياسي في هذا الاتجاه، لا سيما أنه يفتح الأفق للصين والهند لدور أكبر في هذه المنطقة.

علاوة على ما سبق، نقلت المملكة العربية السعودية المواجهة مع إيران إلى هذه الساحة عبر تكثيف وجودها وتعاونها مع هذه الدول حتى لا تتحول إلى ساحة مفتوحة أمام التأثير والنفوذ الإيراني، وذلك في إطار مواجهة شاملة بين البلدين على امتداد الإقليم.

ثانياً: تطوّر العلاقات الإيرانية-الطايجيكية

مرّت العلاقات بين إيران وطاجيكستان بثلاث مراحل: المرحلة الأولى بدأتها إيران بمرحلة التقارب وبناء الثقة في إطار محاولتها للبحث عن موطئ قدم لها في دول آسيا الوسطى وفي القلب منها طاجيكستان إبان انهيار الاتحاد السوفييتي في بداية التسعينيات، إذ عمدت إلى لعب دور بارز في إنهاء الحرب الأهلية باستضافة مفاوضات السلام على أراضيها عام 1997 بين حزب النهضة الإسلامية المعارض الرئيسي في البلاد وبين الرئيس الطايجيكي إمام علي رحمانوف، تحت إشراف الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي، ومجلس الأمن والتعاون الأوروبي.⁸

ثم كانت المرحلة الثانية التي شهدت التمدد وبسط النفوذ بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ومحاولة إيران ملء الفراغ النسبي في آسيا الوسطى، وفي هذه المرحلة حققت إيران نجاحاً مهماً في اختراق الساحة الطايجيكية عبر عديد من أدواتها الثقافية والاقتصادية والتنموية. وكذلك القوة الصلبة، إذ شهدت العلاقات العسكرية بين البلدين في تلك المرحلة تطوراً كبيراً حتى إنه في عام 2011 قال وزير الدفاع الطايجيكي شيرالي خيرولوييف، في حضور الرئيس الإيراني أحمددي نجاد في أثناء زيارة له إلى طاجيكستان: «إذا لزم الأمر، يمكن للقوات المسلحة لجمهورية إيران الإسلامية أن تصل إلى طاجيكستان في غضون ساعتين. فنحن دولتان شقيقتان وصديقتان أمام الأعداء»، داعياً الجنود

الإيرانيين إلى حضور عرض عسكريّ في احتفالات استقلال طاجيكستان، في حين قال أحمدى نجاد إن إيران وطاجيكستان كانتا مثل «روح واحدة في جسدين»، وإن للدولتين «تاريخاً واحداً، وثقافة وتقاليد وديناً واحداً، كل هذا يجعلهما لا تتفصلان»⁹.

أما المرحلة الثالثة وهي المرحلة الراهنة فهي مرحلة انحصار النفوذ الإيراني نتيجة لتصدع العلاقات بينها وبين بعض دول آسيا الوسطى، وفي القلب منها طاجيكستان، التي شهدت تدهوراً غير مسبوق في العلاقات بعد بث التلفزيون الرسمي لطاجيكستان فيلماً وثائقياً مدته 45 دقيقة في 9 أغسطس 2017، مثل أول اتهام علنيّ لطهران بالتدخل في الحرب الأهلية في طاجيكستان التي وقعت بين عامي 1992-1997، وهي الفترة التي تقلد فيها الرئيس الإيراني الراحل هاشمي رفسنجاني السلطة (1989-1997).

ثالثاً: العوامل المؤثرة على العلاقة بين إيران وطاجيكستان

اكتسبت طاجيكستان أهمية خاصة في إطار الطموحات السياسية الإيرانية لعدة عوامل، أهمها هيمنة الإسلام فيها دون منازع، وانتماء غالبية سكانها إلى أصول فارسية مقارنة بسكان بقية الجمهوريات الأخرى في آسيا الوسطى، بجانب الانتشار الواسع للغة الفارسية، وأخيراً تفشّي الصراع العرقي في المنطقة، وتخوّف الطاجيك من ذوي الأصول الفارسية من سيطرة الأغلبية ذات الأصول التركية على مقاليد الأمور¹⁰. ويمكن القول إنّ العلاقة بين البلدين تأثرت بجملة من العوامل، أهمها ما يلي:

1- العوامل الداخلية:

أ. الجغرافيا السياسية: لا شك أنّ الموقع الجغرافي لإيران وضعها في مكانة متميزة إزاء طاجيكستان¹¹، لأن طاجيكستان بلد جبليّ حبيس يقع في آسيا الوسطى، وتحدها أفغانستان من الجنوب، وأوزبكستان من الغرب، وقيرغيزستان من الشمال، وجمهورية الصين الشعبية من الشرق. وقد مهدت هذه العوامل الطريق أمام إيران لامتلاك زمام المبادرة في العلاقات مع طاجيكستان، فضلاً عن القدرة على التأثير على علاقاتها بالقوى الإقليمية والدولية الأخرى، وذلك تحت وطأة هذا الظرف الجغرافي والسياسي وما يتعلق به من ملاسبات¹².

كما أنّ هذا الموقع جعل كذلك من طاجيكستان مؤثراً على مسار علاقة إيران مع بعض دول الجوار، لا سيّما تلك الدول التي تتمتع بثقل سياسيّ واقتصاديّ كبير مثل الصين وروسيا ودول منظمة شنغهاي للتعاون، لذلك فإن تعزيز العلاقة معها ينعكس إيجاباً على علاقة إيران بهذه الدول المهمة التي تسعى إلى استقرار الوضع الأمني والاقتصادي في منطقة آسيا الوسطى¹³.

على الصعيد ذاته تدخل طاجيكستان ضمن دول الحزام الأمني في المنطقة، الذي تسعى إيران لأن تحيط نفسها به حماية لأمنها القومي ولحدودها المترامية والمشاركة مع عديد من الدول، لا سيّما في مواجهة القوتين الرئيسيتين المتنافستين في المنطقة، وهما روسيا والولايات المتحدة¹⁴.

وإذا كانت عوامل الجغرافيا قد وضعت طاجيكستان ضمن أولويات السياسة الخارجية الإيرانية، لا سيّما ما يتعلق بموقعها المتميز إزاء دول آسيا الوسطى، بجانب وجود جوانب مشتركة في الهوية الخاصة بالبلدين ومكوناتها، فإن التراث الفارسي وتاريخ البلدين يظل ضمن العوامل المؤثرة على العلاقة بينهما¹⁵.

ب. الهوية والتركيبة الديمغرافية: ينتمي معظم سكان طاجيكستان إلى جماعة الطاجيك، وهي جماعة تشترك في ثقافتها وتاريخها مع الشعوب الإيرانية، وهذه من العوامل المؤثرة على العلاقة بين البلدين، إذ إنّ اللغة الرسمية لطاجيكستان هي اللغة الفارسية التي تعرف رسمياً باسم اللغة الطاجيكية. وقد كانت طاجيكستان قديماً جزءاً من الإمبراطورية السامانية إلى أن أصبحت إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي في القرن العشرين، وعُرفت باسم الجمهورية الاشتراكية السوفييتية الطاجيكية¹⁶.

ومنذ اندلاع الثورة الإيرانية في أواخر سبعينيات القرن المنصرم، يسهر النظام الإيراني على نشر مشروعه التوسعي في الدول المستهدفة، سواء في المنطقة العربية أو منطقة آسيا الوسطى أو على الصعيد العالمي، وهو مشروع قوميّ صفوويّ فارسيّ، يستهدف نشر المذهب الاثنا عشري في تلك الدول لإعادة أمجاد إمبراطوريته الفارسية القديمة¹⁷. ولا يختلف الإيرانيون المعاصرون عن الصفويين القدامى في ما يخص أفكارهم وتوجهاتهم ومواقفهم. وقد مثلت طاجيكستان في ظل عناصر الهوية المشتركة تلك بيئة مناسبة لتصدير مشروعها والترويج له¹⁸.

ج. التوجهات العلمانية للنظام الطاجيكي: دخل الإسلام طاجيكستان منذ ألف وثلاثمئة سنة، واستمرّ الدين الذي يعتنقه الأغلبية العظمى من السكان حتى في أحلك فترات القمع الشيوعي للجمهوريات الإسلامية التابعة له في آسيا الوسطى. وقد شهدت طاجيكستان في سبعينيات القرن المنصرم حركة صحوة إسلامية تمثلت في نشأة حركة النهضة الإسلامية التي تأسست عام 1978 بمبادرة من الشيخ عبد الله نوري، إذ اهتمت بشؤون التربية الإسلامية وبناء المساجد، والمدارس القرآنية. لكن هذه الصحوة لم يكتب لها الاستمرار بعد الاستقلال من الاتحاد السوفييتي، وبعد تولي الرئيس إمام علي رحمان (65 عاماً)

منصب الرئيس وتبنيّه وتوجّهًا علمانيًا. وكعادة إيران وجدت في هذه الأزمة فرصة للتدخل من خلال تطوير علاقاتها مع حركة النهضة، وهو ما أثار الحكومة الطاجيكية. سعى النظام الطاجيكي برئاسة رحمان (أحد زعماء الحزب الشيوعي سابقًا) الذي فاز بولاية رئاسية رابعة على التوالي عام 2013 مدتها 7 سنوات، إلى فرض العلمنة، إذ أقدمت السلطات الرسمية على اتخاذ مجموعة من الإجراءات تصبّ في اتجاه علمانية الدولة وتغيير هويتها، فبحث البرلمان مشروع قانون حظر الأسماء العربية أو ذات الطابع العربي في طاجيكستان عام 2015، وذلك بطلب مباشر من الرئيس رحمان، على أن يسري القانون بأثر رجعي¹⁹. وفي سياق ذي صلة، منعت سلطات مدينة دوشانبي التجار من استيراد وبيع الملابس الإسلامية السوداء للمسلمات والتي لا تتصل بالحضارة الطاجيكية، حسب تعبير الحكومة، علاوة على إدراج المحكمة الدستورية في طاجيكستان حزب النهضة الإسلامي في 29 سبتمبر 2015 ضمن قائمة المنظمات الإرهابية²⁰، وإصدار المحكمة العليا قرارًا بسجن 12 من كبار منتسبي حزب النهضة فترة تتراوح بين 2 و28 عامًا²¹، وحجبت السلطات الطاجيكية عشرات المواقع الداعمة للحزب بحجج توجيهه الانتقادات إلى الحكومة، ومنع الانزلاق للحروب الأهلية. وقد صبّت هذه الإجراءات في صالح العلاقات الإيرانية الطاجيكية، خصوصًا بعد لجوء حزب النهضة إلى إيران²².

2- القوى الإقليمية والدولية:

لفترات طويلة ظلت نظريات العلاقات الدولية تعطي أولوية لتأثير العوامل الإقليمية والدولية على العلاقات بين وحدتين دوليتين عن تلك الداخلية، وإن أتاح التحوّل في مفهوم القوة دورًا كبيرًا لتأثير العوامل الداخلية. وفي هذا السياق أثرت العوامل الإقليمية والدولية على العلاقات الإيرانية الطاجيكية، ولرصد أثر العوامل الخارجية (التنافس الدولي على منطقة آسيا الوسطى وفي القلب منها طاجيكستان) على العلاقات بين البلدين، لا بد من التطرّق إلى أدوار ومصالح الوحدات الدولية التالية:

أ- تركيا: تقع طاجيكستان في قلب التنافس الإيراني-التركي على منطقة آسيا الوسطى، وذلك استنادًا إلى علاقاتها بدول تلك المنطقة والروابط التاريخية والجغرافية، فضلًا عن الأهمية الجيوسياسية والاقتصادية، فتركيا تشترك مع أغلب دول تلك المنطقة في الخلفية الثقافية، ولا شك أن استقلال تلك الجمهوريات مع انهيار الاتحاد السوفييتي قد فتح لتركيا المجال لممارسة تأثيرها داخل تلك الدول، لا سيّما أن الغرب كان بحاجة إلى جهود تركيا من أجل ملء الفراغ الذي تركه انهيار الاتحاد السوفييتي، فضلًا عن أن تركيا نموذج يمكن أن

تحتذي به تلك الدول سواء في بناء نظامها السياسي أو التوجّه الرأسمالي بعيداً عن الإرث الاشتراكي. وقد كانت إيران على النقيض من ذلك تطرح نموذجها وأيديولوجيتها الدينية المعادية للغرب أمام هذه الدول، ومن ثمّ فإنّ المشروعين الإيراني والتركي كانا فرسَي رهان يتسابقان على النفوذ في منطقة آسيا الوسطى. لكن الاختراق السريع الذي قامت به تركيا في آسيا الوسطى لم يكن ليتمّ بسهولة دون المساندة الأمريكية غير المشروطة لتركيا لتكون قوة استقرار في المنطقة وعاملاً موازناً لإيران. ويظل القرار الأمريكي في فبراير 1992 بالاعتماد على تركيا لتنظيم عملية إعادة الأمل لمساعدة الجمهوريات الاشتراكية السابقة بآسيا الوسطى والقوقاز شاهداً على هذه المساندة الأمريكية²³.

وإن كانت إيران تحاول وتستهدف من وراء تطوير علاقاتها مع دول آسيا الوسطى تعزيز نفوذها الإقليمي والخروج من شرنقة العزلة والتضييق والعقوبات الدولية المفروضة عليها، فإنّ تركيا كانت تحاول أن تخترق تلك المنطقة لتعويض فشلها في الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، وذلك ضمن استراتيجية تركية استهدفت إحياء وجودها وعلاقاتها في مناطق نفوذها إبان المد الإمبراطوري العثماني، ومن ثمّ لم يكن التنافس بين إيران وتركيا على الوجود والتأثير السياسي وحسب، ولكن كذلك من أجل مصالح اقتصادية وبناء عمق استراتيجي يخدم أهداف الدولتين ويحمي مصالحهما²⁴.

ب. السعودية: في الوقت الذي تسعى فيه إيران إلى التغلغل داخل بعض الدول عن طريق نشر منظومتها الفكرية ومذهبها الديني، من خلال دعم بعض الجماعات التي تدين لها بالولاء، فإنّ المملكة العربية السعودية تسعى لمحاصرة هذا النشاط الإيراني من خلال تحصين الدول السنيّة من التشيع التي تريد طهران أن تشره في محيطها الإقليمي. لذلك بادرت المملكة العربية السعودية، في إطار سعيها لتحجيم ومجابهة الدور الإيراني في المناطق السنيّة، بإقامة علاقات سياسية ودبلوماسية مع طاجيكستان رسمياً في 11 يناير 1992، أي بعد شهور قليلة من انهيار الاتحاد السوفييتي وإعلان قيام جمهورية طاجيكستان عن استقلالها في 9 سبتمبر 1991.

وقد قام في ذلك الوقت وزير الخارجية السعودي السابق، الأمير سعود الفيصل، بزيارة رسمية إلى العاصمة دوشنبه في 21 فبراير 1992، والتقى خلالها بالرئيس الطاجيكي السابق رحمان نبييف وعدد من كبار المسؤولين في الدولة²⁵. كما زار إمام علي رحمان، رئيس جمهورية طاجيكستان، المملكة العربية السعودية أربع مرات ولعب دوراً بارزاً في إقامة وتوثيق العلاقات الودية والتعاون المثمر الثنائي والمتعدّد الأطراف بين البلدين²⁶.

وقامت المملكة بتطوير التعاون في عديد من المجالات، خصوصاً في «مكافحة الجريمة»، و«التعليم»، و«العلوم والتكنولوجيا»، و«الشباب والرياضة»، و«الاتصال الجوي»، كما تم توقيع اتفاقيات مهمة للتعاون في مجالات «الاقتصاد»، و«التجارة»، و«الاستثمار»، و«التكنولوجيا»، و«الثقافة»، و«الرياضة»، و«شؤون الشباب» بين البلدين.

وقد أسهم الصندوق السعودي للتنمية في مجالات تمويل مشروعات البنى التحتية لدولة طاجيكستان، كما تتعاون الحكومة الطاجيكية مع الصندوق السعودي للتنمية بداية من عام 2002، إذ تم خلال هذه السنوات توقيع سبع اتفاقيات بمبلغ إجمالي 220،122 مليون ريال سعودي، وهي تهدف أساساً إلى تطوير التعليم والصحة وبناء الطرق.²⁷

وفي إطار تطوير العلاقات الاقتصادية بين البلدين والدفع بها إلى سبل أرحب تم إنشاء «مجلس الأعمال السعودي الطاجيكي»، وهو المجلس الذي يعقد اجتماعاته بشكل سنوي، وهو يتبع مجلس الغرف السعودية، وقد عقد أولى دوراته في 27 يونيو 2011 في دوشنبه عاصمة جمهورية طاجيكستان.²⁸ ومن خلال مدخل التعاون الاقتصادي تحاول المملكة الوقوف في وجه إيران والجيلولة دون نشر مذهبها في هذا البلد الإسلامي في وسط آسيا. والواقع أن المملكة العربية السعودية تلعب في طاجيكستان دوراً موازناً تنموياً وسياسياً واستراتيجياً في مواجهة الدول الإيرانية الذي يسعى لأن تكون دولة مركز تحظى بعلاقات وتنسيق عالي المستوى مع هذه الدول باعتبارها تقع ضمن نطاق مجالها الحيوي ومصالحها الاستراتيجية.

ج. روسيا: تاريخياً كانت منطقة آسيا الوسطى مسرحاً للصراع الروسي-الإيراني، ولم تكن طاجيكستان بعيدة عن التحالفات العسكرية والاقتصادية الإقليمية التي تهيمن عليها موسكو، فقد انضمت طاجيكستان إلى «المجموعة الاقتصادية الأوراسية»، و«منظمة معاهدة الأمن الجماعي»، و«منظمة شنغهاي للتعاون»، وجميعها تحالفات تهيمن عليها روسيا. كما وقّعت روسيا عقداً مع دولة طاجيكستان يسمح للقاعدة العسكرية الروسية (201) بالبقاء على أرضها حتى عام 2042، وهو العقد الذي يشمل أيضاً تزويد طاجيكستان بالمعدات العسكرية والفنية المختلفة.²⁹

وتكمن أهمية منطقة آسيا الوسطى لروسيا باعتبارها تمثل المتغير الجيوسياسي اللازم الذي يمثل مفتاح السيطرة على العالم، فالتمركز في آسيا الوسطى يتيح الإطلاقة الأكثر سهولة والأقل تكلفة نحو العمق الحيوي الروسي باتجاه الشمال، والعمق الحيوي الصيني باتجاه الجنوب الشرقي، علاوة على العمق الحيوي لشبه القارة الهندية باتجاه الجنوب

والعمق الحيوي الإيراني باتجاه الجنوب الغربي، والعمق الحيوي لكامل منطقة بحر قزوين باتجاه الغرب³⁰.

ومن المعلوم أن السياسة الروسية الخارجية إزاء جمهوريات آسيا الوسطى تستهدف الحفاظ على مركز روسيا كقوة عظمى في المنطقة، إذ تعدّ روسيا حدود تلك الدول حدوداً أمنية لها³¹. وحتى الآن تواصل موسكو لعب دور رئيسي في البلاد، فطبقاً لمنظمة معاهدة الأمن الجماعي التي هي حلف عسكري بقيادة روسيا تقوم بتدريب الدول السوفييتية بشكل روتيني بمناورات عسكرية على الحدود. وفي أبريل 2015 أعلن الحلف العسكري عن خطط لإقامة قوة نشر سريعة لطاجيكستان في حالة اجتياح المسلّحين الإسلاميين للبلاد³².

وقد أدى تصاعد الحركات المتطرفة في آسيا الوسطى وتنامي التنافس الإقليمي على المنطقة وبالذات التنافس الإيراني-التركي، إلى دفع روسيا إلى الاحتفاظ بقواعد عسكرية في أربع جمهوريات في آسيا الوسطى في كل من طاجاكستان وكازاخستان وقيرغيزستان وتركمانيستان في إطار التنافس الدولي على عسكري آسيا الوسطى³³.

ولا شك أيضاً أن العامل الاقتصادي والعسكري يمثل مفتاحاً مهماً لفهم اهتمام روسيا بتلك المنطقة، فعلى الصعيد الاقتصادي يرتبط اقتصاد هذه الدول بالاقتصاد الروسي بشكل كبير، إذ تحتل الواردات والصادرات الروسية مكانة كبيرة في اقتصادات تلك الدول. علاوة على أن السيطرة على موارد تلك المنطقة يتيح التحكم في إمدادات النفط والغاز والمعادن والموارد الزراعية إلى روسيا والصين وشبه القارة الهندية ودول الاتحاد الأوروبي. كما تتمتع باحتياطيات نفطية هائلة، فضلاً عن الغاز الطبيعي والنفط والفحم وغيرها، وتمتلك طاجيكستان مناجم كبيرة من اليورانيوم تم اكتشافها في الثلاثينيات³⁴.

أما على الصعيد العسكري فتسعى روسيا إلى تجريد دول آسيا الوسطى من السلاح النووي المتبقي من الترسانة النووية السوفييتية، كما تحاول بشتى الطرق منع تسرب الخبرة والمواد النووية إلى الدول الأخرى³⁵.

وأما التعاون الثقافي والتعليمي والعلمي فقد فتحت جامعة موسكو الحكومية والجامعة الوطنية للبحوث والتكنولوجيا بالفعل فرعاً في دوشانبي، يتبع معهد موسكو للطاقة. ويدرس فيه ما يقرب من 5000 طالب طاجيكي في الجامعات الروسية، في حين أن الجامعة السلوفاكية الروسية الطاجيكية في دوشانبي لديها الآن 4300 طالب مسجلين³⁶.

وفي ظل التأثير الروسي الكبير على دول تلك المنطقة تجد إيران أنها بصدد صعوبات حقيقية في توسيع نفوذها وتأثيرها، لا سيّما أن مصالحها السياسية والاقتصادية والأمنية

تتقاطع في كثير من الأحيان مع المصالح الروسية، ففي حين تحاول إيران أن تستقطب تلك الدول وتعزز علاقاتها معها، نجد أن روسيا تعدّها ضمن مجالها الحيوي والاستراتيجي، ولا يعني التنسيق الروسي التركي في بعض الازمات أن هذا ينعكس على توجهات الدولتين تجاه تلك المنطقة.

د. الولايات المتحدة: منذ اندلاع الثورة الإيرانية والعداء هو السمة الرئيسية التي تحكم علاقة واشنطن بطهران، فالولايات المتحدة ترى في النظام الإيراني تهديداً لمصالحها، لا سيّما في دول الجوار، وقد أدى ذلك إلى تبني الولايات المتحدة سياسة العقوبات والعزلة من أجل الضغط على النظام الإيراني، ومحاولة تغييره أو تعديل سلوكه على الأقل. ومن جانبها ترى إيران أن الولايات المتحدة هي المتسبب الرئيسي في الازمات المحيطة بها. ولا شك أن مجيء الولايات المتحدة إلى المنطقة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي أدى إلى تطويق إيران من جهة حدودها الشرقية، فالولايات المتحدة تمكنت من تطوير علاقاتها مع دول آسيا الوسطى في إطار ترتيبات ما بعد انهيار الكتلة الشرقية، وأصبحت موجودة على حدود إيران. وقد تعزز هذا الوجود بمرور الوقت ولا سيّما بعد أحداث الحرب الأمريكية على أفغانستان في 2001، وتساعد موجة الحرب على الإرهاب. وتتزايد المخاوف الإيرانية على ضوء مكانة تلك المنطقة في الاستراتيجية الأمريكية التي تعدّ منطقة آسيا الوسطى مفتاحاً مهماً في استراتيجية الهيمنة الأمريكية على أوراسيا انطلاقاً من إرساء ترتيبات عسكرية واقتصادية وأمنية جديدة في آسيا الوسطى³⁷. وقد كانت طاجيكستان أول دولة في المنطقة توقع اتفاق عبور لدعم عمليات حلف الناتو وإيساف (القوة الدولية للمساعدة الأمنية) في أفغانستان³⁸.

وقد مثل النفط هدفاً رئيسياً لتحركات الولايات المتحدة تجاه المنطقة التي تزخر باحتياطي هائل منه، ومن ثمّ كان التغلغل الأمريكي يستهدف استكمال حلقات السيطرة على منابع النفط والغاز العالمية في آسيا الوسطى وبحر قزوين بعدما تمكنت من بسط سيطرتها على نفط وغاز الخليج والشرق الأوسط ضمن مشروع الشرق الأوسط الكبير وتوظيف هذه السيطرة في الصراع الجيو-استراتيجي مع القوى الصاعدة، خصوصاً الصين³⁹.

كما هدفت أمريكا من الوجود بقوة في تلك المنطقة وفي القلب منها طاجيكستان إلى احتواء الصعود الصيني بإحداث ترتيبات جيوبوليتيكية من شأنها الحد من التمدد الاستراتيجي للصين في جناحها الغربي، ومنع روسيا من العودة إلى حديقته الخلفية وعزلها عن مناطق نفوذها التاريخية التي ورثتها عن الاتحاد السوفياتي عند حدودها

الجنوبية، أيضاً استكمال حلقات حصار إيران وحرمانها من ميزة موقعها الجيو-سياسي المتصل بآسيا الوسطى عند بوابتها الشرقية⁴⁰.

هـ. الصين: ترتبط إيران بعلاقات جيدة مع الصين بعكس علاقاتها مع الولايات المتحدة، وتعول عليها إيران كموازن دولي للولايات المتحدة، لا سيما في منطقة آسيا الوسطى، لذلك يتعاون الطرفان في بعض المشروعات الاقتصادية العملاقة، ولا يمثل التحرك الصيني العقلاني تجاه دول المنطقة تهديداً حقيقياً لإيران، بل إنه دور مطلوب لخلق وإيجاد شركاء منافسين للولايات المتحدة. تسعى الصين لتوسيع نفوذها الاقتصادي في المنطقة، كما تسعى لإنشاء طريق الحرير الجديد عبرها، ليكون خط وصلها بأوروبا⁴¹. وفي سبيل ذلك تقوم بتذليل أي عقبات تقف أمامها، إذ توصلت مع طاجيكستان في عام 2012 إلى حل لقضية أرض متنازع عليها، حينما سلّمت طاجيكستان وفقاً لبروتوكول ترسيم الحدود نحو ألف كيلومتر مربع من الأراضي إلى الصين مقابل معاملة تفضيلية اقتصادية محدّدة، بالإضافة إلى ذلك وافقت الدولتان على أن تقوم الشركة الصينية «دونغ بينغ هيلي» ببناء مصفاة نفط في جنوب طاجيكستان⁴².

ويدّعي كثيرون أن أسهم الصين في منطقة آسيا الوسطى وخصوصاً في طاجيكستان عقلانية بسبب المخاوف الأمنية، إذ تسعى الصين إلى إنشاء مناطق عازلة آمنة على طول حدودها مع أفغانستان وباكستان وطاجيكستان، لأن الشاغل الرئيسي للصين هو التهديد المتزايد للإسلام الراديكالي في المنطقة الذي من شأنه أن يزعزع استقرار الوضع في مقاطعة شينغيانغ ذاتية الحكم لقومية الإيغور⁴³. وقد أقامت الصين بالفعل تحالفاً ضد الإرهاب مع باكستان وأفغانستان وطاجيكستان من أجل تعزيز التنسيق مع الدول الإقليمية لمواجهة التهديد المتنامي المسلح. ومن الواضح أن الصين تدفع كل هذه الدول إلى تعاون عسكري وأمني أوثق⁴⁴.

رابعاً: أدوات النفوذ الإيراني في طاجيكستان

تُعَدُّ طهران من أولى دول العالم التي افتتحت سفارة لها في طاجيكستان عقب الاستقلال عام 1992، كما أنها قامت باستثمارات ضخمة في مجال البنية التحتية في هذا البلد⁴⁵، وقد تأثر عدد ليس بالقليل من مسلمي طاجيكستان بالفكر الشيوعي الإيراني الذي دخل العاصمة وبعض مدن طاجيكستان بعد استقلالها عن طريق أعمال الإغاثة التي كانت تقوم بها السفارة الإيرانية وفرع مكتبة الهدى الإيرانية في العاصمة دوشنبه⁴⁶.

وقد استغلت إيران الأوضاع الاقتصادية المتردية في طاجيكستان وتراجع مؤشرات

التنمية وانتشار الفقر، ومن ثمّ افتتحت فرعاً لـ «مؤسسة الخيرية» في العاصمة الطاجيكية، ثم بعد فترة قصيرة تم فتح «المركز الثقافي الإيراني» بجانب مؤسسات أخرى تم إنشاؤها، واكتسبت هذه المؤسسات بمرور الوقت شرعية قانونية ومؤسسية وقامت بدور اجتماعي مهم⁴⁷.

كما أنشأت طهران مراكز ثقافية تقوم على نشر أفكارها وأيديولوجيتها، كمركز «إيرانيان» بمدينة خجند الذي اهتم قبل إغلاقه بتوزيع الكتب وإقامة المسابقات الثقافية، فضلاً عن توفير خدمة الإنترنت للجمهور، وتسهيل رحلات للشباب إلى إيران⁴⁸.

أما الطلاب الطاجيكي ممن درسوا في الجامعات الإيرانية، وخصوصاً في جامعة قم فقد اعتنق بعضهم المذهب الشيعي. ويقوم هؤلاء الطلاب بمساعدة السفارة الإيرانية في طاجيكستان بتوفير منح طلابية بشكل سنوي لأكثر من خمسين طالباً للدراسة في جامعة قم وتعلم مذهب الشيعة بحسب نشطاء متابعين لنشاط التشيع في طاجيكستان، كما يقومون بترجمة وتوزيع كتب الشيعة مجاناً، بجانب تنظيم حفلات الزواج الجماعية لأبناء وبنات أهل الشيعة.

تعتمد الأنشطة الخيرية والثقافية الإيرانية في طاجيكستان على مؤسسات إيرانية خالصة، وهي: «الخميني الخيرية»، «الرضا الخيرية»، «الزهراء الخيرية»، «المركز الثقافي الإيراني»، «مكتبة الهدى العالمية»، «الهلل الأحمر الإيراني»⁴⁹.

وقد تعاونت إيران والجهات التعليمية في طاجيكستان في فتح فرع للجامعة المفتوحة الإيرانية. وتعدّ هذه الجامعة من أبرز المشروعات التعليمية الإيرانية الناجحة التي وضع حجر أساسها هاشمي رفسنجاني. ويقدر العدد الإجمالي لطلابها في إيران وخارجها بمليون و700 ألف طالب.

وأنت هذه الخطوة بعد أن تمكنت إيران من اختراق الجامعة الإسلامية الوحيدة في البلد، إذ تم تعيين تاج الدين عصام الدينوف من خريجي جامعة المصطفى الشيعية في قم رئيساً للجامعة، وعلى إثر ذلك تم طرد 27 أستاذاً من أساتذة الجامعة بتهمة السلفية والتخابر لصالح المملكة العربية السعودية، وبدأت العناصر الإيرانية في تغيير المناهج التعليمية في هذه الجامعة السنية بمناهج أخرى أعدت في قم، ليتم تحويل هذا الصرح الإسلامي السنّي إلى جامعة شيعية.

وقد استغل منتسبو الفكر الشيعي علاقاتهم للوصول إلى مواقع القرار في وزارة الشؤون الداخلية في طاجيكستان، وترتب على ذلك فرض قيود وانتهاج سياسات تخدم توجهاتهم

في التضييق على المذهب السني وإفساح المجال أمام الترويج ودعم المذهب الشيعي، وعلى سبيل المثال تم إصدار قرار وزاري يأمر بمنع تداول ونشر 13 كتاباً إسلامياً سبق أن ترجم إلى اللغة الطاجيكية. من بينها مؤلفات الإمام ابن تيمية، والإمام محمد بن عبد الوهاب، والشيخ ابن باز، والشيخ ابن العثيمين، والشيخ صالح آل الشيخ، والشيخ الألباني⁵⁰.

وقامت إيران كذلك بعقد اتفاقات ثنائية عديدة، منها مثلاً التوقيع على مذكرة تفاهم لقبول الطلبة وتبادل الاساتذة الجامعيين بين طاجيكستان ومحافظة همدان الإيرانية⁵¹. كما تم إنشاء «منظمة اللغة الفارسية» في فبراير 1992 التي ضمت إيران وطاجيكستان وأفغانستان، فضلاً عن تقديم إيران مساعدات لتطوير العناصر الفارسية في ثقافات تلك الدول الناطقة بالتركية عن طريق تدريس الفارسية بالمدارس والجامعات، وإقرار دراسة المرحلة الفارسية في تاريخ تلك الدول، كما أنشأت طهران «معهد الدراسات السياسية والدولية» التابع للخارجية الإيرانية، وهو مركز بحثي يهتم بدراسة آسيا الوسطى والقوقاز، وينظم مؤتمراً سنوياً لمناقشة قضايا لمنطقة، كما يصدر مجلة ربع سنوية بعنوان «آسيا الوسطى والقوقاز»⁵².

وطبقاً للبيانات الرسمية للخارجية الإيرانية فقد نفذت إيران عديداً من مشروعات البنية التحتية في دولة طاجيكستان مثل «محطة سنغودة 2 الكهرومائية»، و«نفق انزاب الاستراتيجي»، و«مستشفى ابن سينا»، فضلاً عن تقديم الخدمات الطبية من قبل جمعية الهلال الأحمر الإيراني. كذلك عمدت إيران إلى تأسيس المراكز الرياضية وترميم الأبنية التاريخية وبناء العشرات من المراكز التعليمية الفنية والحرفية بطاجيكستان⁵³.

وفي ما يخص صادرات إيران لطاجيكستان فقد كشف سابقاً سفير إيران لدى طاجيكستان حجة الله ففاني عن أن 80% من الصادرات لطاجيكستان غير نفطية، وهي تشمل «منتجات صناعة البناء»، و«السجاد»، و«الأدوية والمنتجات الغذائية والصحية»⁵⁴. وقد كشف مساعد شؤون نقل الركاب في شركة «السكك الحديدية الإيرانية» حسن موسوي عن محادثات بين إيران ودول طاجيكستان وتركمنستان وكازاخستان لمدّ شبكة السكك الحديدية بين هذه البلدان لتسهيل نقل البضائع والسلع بين آسيا وأوروبا⁵⁵.

كما سعت طهران لإحياء نشاط «منظمة التعاون الاقتصادي» التي أنشئت عام 1985، وتضم في عضويتها كلاً من تركيا وإيران وباكستان، وقادت المباحثات لانضمام كل من أذربيجان وتركمنستان وأوزبكستان وطاجيكستان وقيرغيزستان إلى المنظمة، إذ يتطلع قادة إيران لأن تصبح هذه المنظمة سوقاً إسلامية كبيرة تضم 250 مليون نسمة على مساحة 4 ملايين كيلومتر مربع⁵⁶.

خامساً: أسباب تراجع العلاقات بين إيران وطاجيكستان

بمراجعة الأدبيات السياسية والدراسات الأكاديمية المتخصصة في هذا الشأن ومتابعة التطورات الواقعية في منطقة شرق آسيا ومستجداتها يمكن تقسيم أسباب تراجع العلاقات بين الدولتين إلى:

1- أسباب متعلقة بالدولتين:

يمكن إيجازها في الاتهامات الصريحة من قبل النظام الطاجيكي لإيران بالتدخل في الحرب الأهلية في طاجيكستان، وعلمانية النظام الطاجيكي التي تحول دون بسط نفوذ إيراني من شأنه تغيير هوية للطاجيك، وتبني إيران لحزب النهضة الطاجيكي المعارض والمحظور واستضافة قياداته على أرضيها. وأخيراً خلافات مالية تتعلق بقضية رجل الأعمال الإيراني بابك زنجاني المودع ثروته في بنوك طاجيكستان.

هذا، في حين يُعدّ الفيلم الوثائقي الذي بثه التلفزيون الرسمي لطاجيكستان هو القشة التي بسببها تجمدت العلاقات الطاجيكية-الإيرانية وبالتالي انحسار نفوذ إيران، إذ اتهم الفيلم الوثائقي إيران بتمويل عمليات قتل سياسي، واتهام دوشنبه دبلوماسيين إيرانيين بممارسة نشاطات مفرطة على أراضيها. وورد في الفيلم الذي أعلنت وزارة الداخلية الطاجيكية أنها شاركت في تصويره أن طهران كانت مهتمة بإثارة حرب أهلية في البلاد، وقدمت مساعدات مالية لحزب «النهضة الإسلامي» في طاجيكستان ودربت مسلّحين مرتبطين به على الأراضي الإيرانية⁵⁷.

وعلى إثر ذلك، وبقرار من السلطات الطاجيكية، أغلقت السفارة الإيرانية في طاجيكستان مكاتب ممثلياتها التجارية والثقافية في شمال البلاد. ومنعت السلطات الطاجيكية أيضاً بيع مؤلفات الخميني، مؤسس النظام الإيراني، ورجال دين إيرانيين بارزين آخرين⁵⁸ وكانت قد قررت أيضاً في وقت سابق للواقعة إغلاق مكاتب «جمعية إمداد الإمام الخميني» و«المستشارية الثقافية الإيرانية» و«المستشفى المشتركة لمنظمات الهلال الأحمر الطاجيكية والإيرانية» في مدينة دوشنبه.

أيضاً شكّل التوجّه العلماني الذي تبناه نظام رحمون عاملاً مهماً في توتر العلاقات بين غيران وطاجيكستان، فأيران كدولة إقليمية يحكمها الإسلام السياسي الشيعي كانت محل خوف وترقب من قبل النظام الطاجيكي الذي أخذ خطأ بعيداً عن الخط الإيراني ومن ثمّ كان هذا العامل حائلاً بين توطيد العلاقات وتطورها، لا سيّما على الصعيد الثقافي الذي تجيد إيران استغلاله كمدخل في بعض الدول التي تشاركها الثقافة والهوية الواحدة⁵⁹.

كما أسهمت الدعوة التي قدمتها إيران لقائد حزب « النهضة الإسلامية الطاجيكية » المحظور في طاجيكستان، محيي الدين كبيري لحضور مؤتمر الوحدة الإسلامية الذي عقد في ديسمبر 2015 بطهران في مزيد من التوثق في العلاقة، لا سيما أن كبيري حضر المؤتمر كضيف خاص والتقى بالمرشد الإيراني علي خامنئي في طهران، وهو ما كان يعني تحدياً لحكومة طاجيكستان ورداً على تقاربها مع المملكة العربية السعودية.

وذكرت مصادر إعلامية مستقلة أن الخلافات بين البلدين لها أبعاد أخرى، فالأموال والعقارات التي يمتلكها التاجر الإيراني المسجون في طهران، بابك زنجاني، في طاجيكستان هي أحد أوجه الخلافات بين البلدين. وقد أصدر القضاء الإيراني حكماً بإعدام زنجاني لتهم تتعلق بـ« الفساد المالي وسرقة أموال الدولة ». وتتهم إيران بابك زنجاني ببيع مليار دولار من النفط الإيراني في أيام العقوبات التي كانت مفروضة على طهران بسبب برنامجها النووي، ولكنه لم ينقل المبلغ إلى خزانة الدولة. وتقول وزارة النفط الإيرانية إن معظم المبلغ أودعه زنجاني في البنوك الطاجيكية، وهذا ما تنفيه دوشنبه⁶⁰.

2- أسباب متعلقة بالقوى الإقليمية والدولية:

لم تكن القوى الدولية لتترك إيران لابعاً وحيداً بعد انهيار الاتحاد السوفييتي نهاية القرن الماضي، في دول وسط آسيا ذات الأغلبية المسلمة، وهي الدول التي تتمتع بموقع جغرافي مهم، فضلاً عن ثروات معدنية ونفطية كبيرة، جنباً إلى جنب كون المنطقة من أهم طرق تصدير البترول إلى أوروبا. كما أن إمكاناتها وموقعها الجغرافي وشبكات نقل النفط التي تمر بأراضيها كلها عوامل ستجعل منها المنطقة الأكثر حضوراً في قلب الرهان الاستراتيجي العالمي حول أمن الطاقة⁶¹، فضلاً عن أن نشاط إيران الثقافي والديني ومحاولاتها نشر التشيع، لا سيما في طاجيكستان، جعل المملكة العربية السعودية تقف لها بالمرصاد في أي منطقة أو دولة تحاول إيران الولوج إليها لنشر مذهبها المخالف لمذهب المملكة السني، ومن ثم استطاعت المملكة كما سبقنا الإشارة أن تجعل لها موضع قدم اقتصادياً وثقافياً في ذلك البلد السني ولا تتركه يواجه محاولات إيران نشر مذهبها أو ثقافتها منفرداً، بل كان التنافس السعودي-الإيراني للمساعدة في تأسيس الجامعات بطاجيكستان حاضراً.

أيضاً انطلقت تركيا المسلمة من خلفية العامل الثقافي والديني المشترك بينها وبين معظم تلك الدول لتقوم بدور محوري اقتصادي وسياسي منافس لإيران الشيعية، ومدعوم بنظرة العالم للإسلام التركي المعتدل وإفساح المجال له لا لينافس الدور الثقافي الإيراني فقط، بل ليحصره إلى حد بعيد. هذا إضافة إلى العوامل الاقتصادية التي جعلت تركيا

لاعِباً أساسياً في المنطقة. ومن ثمَّ يمكن القول إنَّ التنافس الإقليمي والدولي لعب دوراً بارزاً ومحورياً في عدم انفراد إيران بمنطقة آسيا الوسطى وفي القلب منها طاجيكستان. وعلى الرغم من أن جمهوريات آسيا الوسطى كانت لها علاقات سياسية واقتصادية مع إيران منذ نهاية الحرب الباردة، فقد كانت هذه العلاقات مقيدة إلى حدِّ كبير بسبب العزلة الإقليمية والدولية المفروضة على إيران من قِبَل الولايات المتحدة. وعلاوة على ذلك فإنَّ سلوك الدول الإقليمية الرئيسية روسيا والصين قد قوض أيضاً الأجندة الإيرانية تجاه دول تلك المنطقة⁶².

لقد سعت أمريكا من جانبها إلى إحباط دور إيران في آسيا الوسطى وطاجيكستان من خلال تحجيم الصلات الاقتصادية والتجارية بين تلك الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والجمهورية الإسلامية الإيرانية، واستكمال حلقات الطوق الأمريكي على إيران ومحاصرتها من الشرق بعد ما تم لها ذلك من جهة الغرب والخليج العربي، فضلاً عن نزع ورقة الطاقة ونقل الإمدادات النَّفْطِيَّة والغازية من آسيا الوسطى وبحر قزوين عبر إيران باعتبارها تمثل الممرَّ الجغرافي الآمن والأقرب والأقل كلفة، وأخيراً احتواء المشروع الشيعي الإيراني⁶³.

أيضاً روسيا لم تترك المجال لانفراد إيران بطاجيكستان، بل كانت روسيا حاضرة وبقوة في طاجيكستان عسكرياً واقتصادياً وتعليمياً وثقافياً، وذلك على ضوء خوفها من تحوُّل تلك الجمهوريات الإسلامية إلى دول عقائدية تتبنى سياسات تضرُّ بمصالح روسيا الحيوية في تلك المنطقة على غرار دولة إيران. أما الصين فكانت حاضرة بقوة في المنطقة وفي القلب منها طاجيكستان، بل إن الصين كانت أكثر حرصاً لعدم انفراد إيران بطاجيكستان خوفاً من تصدير إيران لثورتها إلى ذلك البلد المسلم، لأن الصين تسعى لمواجهة التهديد المتزايد للإسلام الراديكالي في المنطقة الذي قد يؤثر على استقرار الوضع في مقاطعة شينغيانغ ذاتية الحكم لقومية الإيجور المسلمة والمتاخمة لحدود دول آسيا الوسطى.

خاتمة

إنَّ إيران استطاعت بالفعل في مرحلة ما أن تتجح في التغلغل ثقافياً في طاجيكستان من خلال برامج البعثات الطلابية والمؤسَّسات الاجتماعية الخدمية التي افتتحتها فضلاً عن المؤسَّسات التعليمية، لكن هذا التغلغل لم يصاحبه نفوذ سياسي أو اقتصادي كبير نتيجة لاعتبارات داخلية وخارجية. أما الداخلية فهناك تعارض بين مذهب عموم المسلمين في طاجيكستان مع المذهب الشيعي الإيراني، فضلاً عن خوف النخب العلمانية وفي المقدمة

منها الرئيس الطاجيكي نفسه من محاولات إيران نشر ثقافتها المحافظة أو حتى تصدير ثورتها الإسلامية للبلد الإسلامي.

وأما العوامل الخارجية فتمثلت في سعي القوى الدولية والإقليمية (روسيا-أمريكا-الصين-تركيا) إلى السيطرة وبسط النفوذ على المنطقة والتغلغل فيها ومن ثمّ مزاحمة إيران- إن لم يكن إقصاؤها- من تكوين أي نفوذ في المنطقة، فضلاً عن العقوبات التي كانت مفروضة عليها والتي حدّت كثيراً من دورها الخارجي.

ويمكن القول إن العلاقة الإيرانية-الطاجيكية أمام سيناريوهين، إما العودة إلى التقارب والتفاهم وتفكيك الأزمة الحالية، وهذا السيناريو يحتاج إلى نجاح إيران في تفنيد الاتهامات التي ساقها النظام الطاجيكي وتبرئة ساحتها، وتبديد المخاوف لدى النظام الطاجيكي من دعم الحركة الإسلامية المعارضة والمحظورة في البلاد، وطمأنة النظام بأنها غير راغبة فعلياً في التدخل السياسي لهذا البلد، وأن جل ما تريد تقديمه هو الاستثمار والمساعدة الاقتصادية، مع الكف عن محاولات نشر المذهب الشيعي والثقافة الإيرانية المحافظة حتى وإن كانت هذه المحاولات محدودة، إضافة إلى إرسال الرسائل التطمينية للقوى العلمانية الراضية للوجود الإسلامي الإيراني في البلاد. ناهيك بالانفتاح الإيراني الدولي والتخلي عن الرغبات التوسعية في نشر مذهبها وإقامة علاقات جيدة مع دول العالم بما يسمح لها بحرية الحركة دولياً وإقليمياً.

لكن السلوك الإيراني وتوجهات النظام الأيديولوجية وصعوبة تنازله عن أهم مبادئ الثورة، وهو تصديرها والتدخل في الشؤون الداخلية للدول، تجعل هذا السيناريو مستبعداً، لا سيما أن إيران لن تقدم تنازلات تتعلق بعوامل توتر العلاقات كما لن تتخلى عن مشروعها التوسعي في تلك المنطقة.

أما السيناريو الآخر وهو استمرار تدهور العلاقات فهو مرجح، لا سيما في ظل هيمنة الشك على الجانب الطاجيكي من تصرفات وتحركات إيران، فكثيراً ما كان ينظر إلى إيران بحذر بين بعض قطاعات طاجيكستان السياسية والنخبوية وخصوصاً أولئك الذين لديهم تحيزات علمانية قوية. فتوجهات البلدين جد مختلفة، بل على النقيض. ورغم بذل إيران لجهود كبيرة من أجل تغيير تلك النظرة والتأكيد على أهمية الروابط الثقافية التي يعتقد أنها موجودة بين الدولتين، فإن التجربة أثبتت أنها لم تنجح في تحويل هذا التقارب إلى نفوذ وتأثير سياسي، لهذا فإن ما اكتسبته إيران من نفوذ نسبي وعلاقات شراكة قوية وكبيرة خلال السنوات السابقة فقدت أكثره بعد الأزمة الحالية في العلاقات. كما أن القوى الدولية

والإقليمية من مصلحتها إقصاء طهران عن التأثير على الساحة الطاجيكية فضلاً عن آسيا الوسطى ككل، وتمتلك تلك الدول المقومات والأدوات التي تمكنها من تحقيق هدفها. كما أن أهم مدخل للنفوذ الإيراني في طاجيكستان، وهو المدخل الديني والثقافي، تنتبه بعض الدول الإسلامية السنية كالمملكة العربية السعودية وتركيا لخطورته ومن ثم تعمل هذه الدول على أن تضعف أدوات إيران في التأثير على هذه الساحة، سواء من خلال الدعم الاقتصادي أو المساهمة في الجهود التنموية وتقديم الخدمات.

قائمة المراجع والهوامش

- (1) محمد نجيب السعد: آسيا الوسطى.. ساحة صراع وتنافس دولي، الوطن العمانية، 12 سبتمبر 2015.
http://alwatan.com/details/76453
- (2) Nikolay Kozhanov: Iran Struggles Unsuccessfully for Influence in Central Asia, Washington institute, August 2012, 28.
http://cutt.us/iY0Eg.
- (3) محمد نجيب السعد: آسيا الوسطى.. ساحة صراع وتنافس دولي، مرجع سبق ذكره.
- (4) سباستين بايروس: هل يتنامى دور إيران في آسيا الوسطى؟ مركز الجزيرة للدراسات، 1 أبريل 2014.
http://cutt.us/ko0Nv.
- (5) حمدي عبيد: قراءة في استراتيجية نشر التشيع والدور الوظيفي لإيران في الاستراتيجية الأمريكية، إيران بوست، 20 يونيو 2016.
http://cutt.us/FTNf5
- (6) محمد عبد الرحمن يونس العبيدي، إيران وجمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية.. دراسة في العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية، مركز الدراسات الإقليمية بجامعة الموصل 2008، ص 45-52.
- (7) سباستين بايروس: هل يتنامى دور إيران في آسيا الوسطى؟، مرجع سبق ذكره.
- (8) الوطن السعودية أونلاين: إرهابيو طاجيكستان يفضحون مخططات الاغتيالات الإيرانية، 15 أغسطس 2017.
http://cutt.us/WOAHc
- (9) Joshua Kucera, «Tajikistan Invites Iranian Military to Intervene,» Eurasianet (September 2011, 26).
http://www.eurasianet.org/node/64221
- (10) عمار جفال: التنافس التركي-الإيراني في آسيا الوسطى والقوقاز، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، العدد 106، الطبعة الأولى 2005، ص 23-24.
- (11) آسيا الوسطى: اللعبة الكبرى الجديدة، نون بوست، 16 يناير 2015.
http://www.noonpost.org/content/5049
- (12) محمد السيد سليم: التحولات العالمية والتنافس الدولي على آسيا الوسطى، في: آسيا الوسطى والتحولات العالمية، القاهرة: مركز الدراسات الآسيوية، جامعة القاهرة، الطبعة الأولى، 1998، ص 314.
- (13) محمد عبد الحلیم أبو جاد: ردع إيران، الدوحة: الدوحة للنشر والتوزيع، ط 2013، ص 55-64.
- (14) محمد عباس ناجي: نفوذ إيران الناعم ينحسر في طاجيكستان، العرب اللندنية، 15 أغسطس 2017.
http://cutt.us/rD1dX
- (15) آسيا الوسطى: اللعبة الكبرى الجديدة، مرجع سبق ذكره.
- (16) طاجيكستان: ويكيبيديا، أغسطس 2015
http://cutt.us/yGDBO
- (17) المسلم نت: المشروع الإيراني الصفوي الفارسي المشبوه في بلاد العرب والمسلمين، مايو 2006.
http://almslim.net/node/85934
- (18) نون بوست: آسيا الوسطى: اللعبة الكبرى الجديدة، 16 يناير 2015.
http://www.noonpost.org/content/5049
- (19) طاجيكستان تحظر الأسماء العربية في حملتها ضد الإسلام، الجزيرة نت 10 مايو 2015.
http://cutt.us/liTgn.
- (20) اليوم السابع: طاجيكستان تحظر حزب النهضة الإسلامية وتتهم قيادته بالتمرد، 6 أكتوبر 2015.
http://cutt.us/UykIV
- (21) اليوم السابع: محكمة في طاجيكستان تسجن 2 من قادة المعارضة مدى الحياة، 2 يونيو 2016.
http://cutt.us/VR13W
- (22) Mohammad Sagha: Armed conflict and religious education in Tajikistan October 2010, 13.
http://cutt.us/doEW6
- (23) عمار جفال: التنافس التركي-الإيراني في آسيا الوسطى والقوقاز، مرجع سبق ذكره.
- (24) آسيا الوسطى.. خارطة الصراع الدولي ونقاط الشراكة والتنافس، مرجع سبق ذكره.
- (25) موقع سفارة المملكة العربية السعودية لدى طاجيكستان: العلاقات السعودية مع طاجيكستان.
http://cutt.us/uwjwv
- (26) موقع سفارة طاجيكستان لدى المملكة العربية السعودية: العلاقات بين جمهورية طاجيكستان والمملكة العربية السعودية.
http://tajemb-ksa.org/ar/tarihi-munosibat-o/
- (27) موقع سفارة طاجيكستان لدى المملكة العربية السعودية: العلاقات بين جمهورية طاجيكستان والمملكة العربية السعودية، المرجع السابق.
- (28) صحيفة عكاظ: مجلس سعودي طاجيكي لتعزيز فرص الاستثمار، 11 نوفمبر 2016.
http://cutt.us/r0IOQ.
- (29) كارينا فايزولينا: طاجيكستان.. قوة مؤثرة أم متأثرة بلعبة النفوذ الإقليمية؟ 05 يونيو 2013.
http://cutt.us/OiRAC.
- (30) حنان أبو سكين: الصراع على النفوذ يحدث في آسيا الوسطى، صحيفة العرب اللندنية، 16/6/2014.
http://cutt.us/vQyZ1.
- (31) حنان أبو سكين: بين الصراع والتعاون.. التنافس الدولي في آسيا الوسطى، المرجع السابق.
- (32) Reid Standish how Tajikistan's President Extended his Term—for Life, foreign policy, May 2016, 25.
http://cutt.us/tjDhw
- (33) حسام سويلم: القواعد العسكرية في آسيا الوسطى، مجلة السياسة الدولية، القاهرة: مطابع الأهرام التجارية، العدد 164، أبريل 2006، ص 82-83